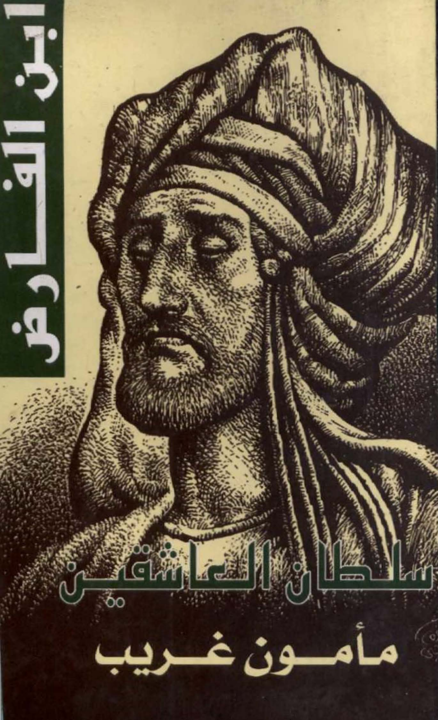


ابن الفارض

سلطان العاشقين

مأمون غريب

عمر بن الفارض

سلطان العاشقين

تأليف : مأمون غريب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الشعراء العرب الشباب والناشئين

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت . ص . ب 2022 برقيا دار شادور . القاهرة . ت : 3923525 - 3936743 . فاكس : 3909618

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر

تليفون : 3256098 - 3251043

رقم الإيداع : 7712 / 2001

الترقيم الدولى : 977 - 270 - 658 - X

الطبعة الأولى : ربيع الأول 1422 هـ - يونية 2001 م

عمر بن الفارض

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .
والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر ـ كما يصنعون فى الأفراح ـ لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثِرهم . . والمُمجِّدُ لذكرهم .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية ، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

ـ فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

- ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

- ويبدأ العصر الأُموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

- أما العصر العباسى الأول فيبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٣٣٤ هـ .

- ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

- ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة ــ كما تتغير الظروف السياسية - وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثَمَّ تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم، فتجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجِزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسدل الزمن على مَنْ لم

يمتلك هـذه القدرة عبـاءته السوداء ، وطـواهم فى جُـبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحـوا فى التعبير عن عصرهـم ، ولا استطاعـوا أن يصلـوا إلينا كما وصـل غيرهم .

ولا شك أن القـارىء المعاصر ـ فى زحـام الحياة الضـاغطة المهمومـة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـــ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختـلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُـلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمـة هى جزء من عظمـة التاريخ العربـى والحضارة العربية . . وهـى أيضاً بطاقة عبور صادقـة إلى كل ما هو ساطـع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْـفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشـاعـر شـاهـد على عصره ، فقـد أولينـا هـذا المعنى اهتمامـاتنـا واختيـاراتنا ، فـوقفنـا فى بـاب كل عصر نطـرقـه ، ونستخلـص منه كنـوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة مـوجهة للشبـاب والناشئين . . لهذا فـإنها تتخذ منهجـاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المنـاهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هـذا المنهج تقـديم الشاعـر من خلال سيرة حيـاته بـأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنـص الشعرى . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشـاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعريـة وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . .
وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرتـه مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه
بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هـؤلاء الشعراء أسـاتذة وأدباء وشعـراء ممتازون ، على درجة عالية مـن الرغبة الداخلية فى هذه المشـاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هـذه السلسلة بالشعـراء المعاصريـن ، باعتبـار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هـؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلـح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاّ تقتصر هذه السلسلـة على تقديم شعراء بعينهـم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظـر إلى خريطة الشعر العـربى من المحيـط إلى الخليج فى وحـدة فنية مترابطـة ، تحقـق للقارىء المعـاصر هـذا الحسّ العربـى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننـا على يقين أن الإخلاصَ والإيمان بجـدوى مـا نُقبـل عليه كفيـلان بتذليـل كل الصعـاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقـدير كـل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهايـة هذه العجـالة إلا أن نشكر مـن كل قلـوبنا كـل من أسهـم فى إذكاء نـار الحماس لإصدار هـذه السلسـة الجميلة مـن الأساتـذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلاَّق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

احمد سويلم

شخصية «عمر بن الفارض» من أهم الشخصيات فى تاريخ التصوف الإسلامى، لما تركه من تراث تداولته الأجيال ولا تزال . . ويدور محوره حول «الحب الإلهى»، فقد عاش الرجل حياته منذ عرف الطريق إلى الله ، وهو يترنَّم بأعذب الأشعار فى حب الذات الإلهية .

وقارىء هذا الشعر العذب ـ بل البالغ العذوبة والجمال، برغم بعض الغموض المحبب الذى قد نجده فيه ، لأن هذا الغموض من طبيعة الشعر الصوفى على العموم ـ قارىء هذا الشعر يشعر بجو روحانى خالص ينقله إلى عالم بالغ الشفافية والجمال . . عالم لا يحسّه إلاَّ من يتذوق قيم الجمال الروحى .

ومعنى الأنس بالله ـ جل جلاله ـ إنها أشياء تحس . . أشياء يتذوقها السالكون لطريق الله ، ويرون فيها جمالاً وحياة لا يشعر بها الغارقون فى أوحال المادة ، أو الذين يعيشون حياتهم بعيدًا عن رحيق الروح .

هذا الجمال الذى يعيشه المتذوقة تحت أضواء مصابيحه ، جعل أحدهم يقول :

«إننا نعيش فى لَذَّة وسعادة لو عرفها الملوك لَجَالدونا عليها بالسيوف . . »!

وهذه النشوة التى يستشعرها المحبون ، هى التى جعلت «رابعة العدوية» - أول من رسم طريق الحب الإلهى فى تاريخ الزهد - جعلتها تقول :

أُحبُّك حُبَّيْن : حُبَّ الهوَى
وحبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوَى
فَشُغْلِى بذكْرِكَ عمَّنْ سِوَاكا
وأما الذى أنت أهلٌ له
فكشفُكَ لِى الحُجْبَ حتّى أَرَاكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاكَ لى
ولكنْ لَكَ الحمدُ فى ذَا وذَاكا .

وهذا الحب هو الذى جعلها تقول :

« ما عَبَدْتُ الله خوفًا من ناره ، ولا طمعًا فى جَنَّتِه ، فأكون كالأجير السوء ، وإنْ خافَ عمل . بل عبدتُه حُبًّا لَهُ ، وشوقًا إليه » .

وكانت بذلك مُؤَسِّسة لمدرسة الحب الإلهى . .

وجاء «ابن الفارض» ليدعم أساس هذه المدرسة ، ويرسم لها نهجًا قويًا ، وهو لا يتحدث فى ذلك من خلال رؤية نظرية ، أو كلمات يخطها على الورق ، ولكن من خلال أن يعيش تجربة الحب الإلهى نفسها ، وأن يتذوق ما تفيضه عليه من أنوار ، وما تمده هذه التجربة من فيوضات روحية نراها فى أشعاره .

وقد استقى الصوفية هذا المعنى من قوله تعالى فى سورة المائدة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤]

وقوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥]

وإذا كان «ابن الفارض» شديد الحب لله ، فقد أحب أيضًا رسوله الخاتم محمدًا عليه الصلاة والسلام ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[آل عمران : ٣١]

ولا معنى للحياة عند «ابن الفارض» بدون هذا الحب ، فحب الله هو الذى يجعل للحياة معنًى ، وإلاَّ أصبحت حياة مليئة بالجفاف والخواء . . فهو القائل :

إن الغـرامَ هو الحيـاةُ فَمُتْ بـه
صَبًّا فحقُّك أن تموتَ وتُعْذَرَا .

وحول حياة هذا الصوفى الشاعر ، أو هذا الشاعر الصوفى ، الذى

استلهم من تجربته الروحية كل هذه الأشعار التى كانت صدى لمواجِده، سوف نبحر إلى عالمه الخصب ، أو بمعنى أدق ، سوف نشير مجرد إشارة إصبع إلى حياة مليئة بكل ما هو جدير بالحياة . .

سوف نعيش مع «عمر بن الفارض» القائل :

وَمَنْ لـم يَمُتْ فى حُبِّه لـم يعشْ بـه
وَدُون اجتناءِ النحْلِ ما جَنت النحلُ

. . إنه إبحار فى عالم سلطان العاشقين « عمر بن الفارض » .

مأمون غريب

بدأ « الزهد » فى الإسلام مع ظهور الإسلام نفسه . . وقد وجد بعض الصحابة فى زهد الرسول عليه الصلاة والسلام وبعده عن الدنيا ، وعمله للآخرة برغم أعباء الرسالة والجهاد فى سبيل نشر الدين . . وجد هؤلاء الصحابة فى الرسول عليه الصلاة والسلام خير قُدْوَة لهم . . فها هى ذى «عائشة» رضى الله عنها تقول عن الرسول الكريم : « كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم » .

وكان عليه الصلاة والسلام يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، حتى أن زوجاته قُلْنَ له :

« أتتكلف كُلَّ هذا وقد غَفَرَ الله لَكَ ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر ؟ » .

فقال : « أفلا أكونُ عبدًا شكورًا » .

وهو القائل ـ كما يروى «البخارى» : « إنَّ عَيْنَىَّ تناماِن ولا ينامُ قلبى » .

وقد زادت حركة الزهد فى الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى، التى استطاع المسلمون خلالها هزيمة الفُرْس ، واقتطاع أجزاء هائلة من الإمبراطورية الرومانية، فتدفقت الغنائم، وعَمَّ الرخاء، وعاش البعض فى دعة وترف، فكان رَدُّ الفعل على هذا ازدهار حركة الزهد أيضًا، وظهور أعلام فى هذا الاتجاه، أمثال «الحسن البصرى»، ثم «رابعة العدوية» التى

ترنمت بالحب الإلٰهى، وهذا التيار هو الذى مَهَّدَ لقيام التصوف الإسلامى المُسْتَمدّ من الكتاب والسنة . .

وهذا التصوف الإسلامى البعيد عن الروافد الأجنبية الدخيلة هو الذى يهمنا هنا ، باعتباره قربى إلى الله عز وجل، وابتغاء وجهه الكريم، وابتغاء ما أعده للمتقين من نعيم فى العالم الآخر .

انتشر الزهاد والمتصوفة فى أنحاء العالم الإسلامى، وبرز منهم أعلام فى كل مكان، وأصبح ذكرهم على كل لسان، وصاروا كالنجوم التى تهدى الحائرين فى بيداء التيه فى الظلام .

وما إن جاء القرن الخامس الهجرى ، حتى رأينا مفكرًا كبيرًا كالإمام «الغزالى» يشنّ هجومًا عنيفًا على الفلسفة، وما فيها من متاهات فكرية، ويهاجم الباطنية وما نشروه من ضلال ومفاسد ، ورأى أن الطريق السوىّ هو طريق الصوفية المستمد من الكتاب والسنة، وذلك بعد رحلة من الشك خاضها . . وقد وصف هذا الاتجاه الذى اطمئن إليه قلبه بقوله :

« نظرتُ إلى نفسى. فرأيت كثرة حُجُبها؛ فَدَخلتُ الخلوة، واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يومًا ، انْقَدَح لى من العلم ما لم يكن عندى، وأَصْفَى وأرَقّ مما كنت أعرفه ، فإذا فيه قوة فقهية. . . فرجعت إلى الخلوة ثانيًا أربعين يومًا ، فانقدح لى علم آخر أرَقّ وأَصْفَى مما حصل عندى أولاً، ففرحت به. . ثم نظرت فيه، فإذا فيه قوة فطرية، فنظرتُ فيه، فإذا به قوة ممزوجة بفهم، وبه ألحق بأهل العلوم اللَّدُنِيَّة، فقلت : إن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى. . . » .

وخرج الإمام «الغزالى» من تجربته - كما ذكر فى كتابه « المنقذ من الضلال» - قائلاً : « . . . إنى علمتُ يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، خاصة أن سيرتهم أحسن السِّيَر ، وطريقهم أصوب الطُّرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم - فى ظاهرهم وباطنهم - مقتبسة من نور مشكاة النُّبُوَّة . وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُسْتضاء به » .

وأصبح التصوف حقيقة فى نسيج الفكر الإسلامى عبر مختلف العصور. وابتداءً من القرن الثانى للهجرة ، حيث رأس «الحسن البصرى» متصوفة البصرة ، و«إبراهيم بن أدهم» فى بَلْخ ، ولبس هؤلاء الصوفية الصوف . . أى تَصَوَّفُوا !

وقد ظهر منهم المفكرون فى القرن الثانى الهجرى ، أمثال «المحاسبى» ، و«ذى النون المصرى» ، اللَّذَيْن أخذا فى وصف النفس ومقاماتها .

ورأينا من الصوفية مَنْ يتحدث عن حال الفناء، كـ«أبى يزيد البسطامى» ، حيث يصل المريد إلى مرتبة الفيْض والإلهام .

كما ظهر التصوف الفلسفى وما فيه من مغالاة، فقال أصحابه بالاتحاد . . أى أن تتلاشى شخصية العبد فى خالقه . . حيث نرى المغالاة التى ظهرت فى آراء «الحلاج» الذى نادى بنظرية الحلول، فَاتُّهِمَ بالجنون والزيغ ، وعُذِّب إلى أن مات فى أوائل القرن الرابع .

وقد تصدّى الفقهاء لمثل هذه النظريات الغريبة، فهاجموا مَن يقول بالاتحاد والحلول والفناء، وغير ذلك من الآراء الفلسفية التى دخلت على التصوف فأفسدته . .

هذا ، وقد ظهر التصوف السُّنِّىّ الذى اتبعه مَنْ أراد أن يبتعد عَمَّا يُوقعه فى الشبهات . . وكان على رأس هؤلاء إمامُ القرن الخامس الهجرى ، «الإمام أبو حامد الغزالى »، الذى هاجم المبتدعين ، ونادى أن هناك عَالَمَيْنِ : عالم الظاهر ، وعالم الباطن :

ـ عالم الظاهر الذى يُدْرَكُ بالحواس .

ـ وعالم الباطن ووسيلته الفيض والإلهام . . ولكن هذا الفيض لا يتم عن طريق الاتحاد أو الحلول ، وإنما عن طريق الكشف الروحى بالمجاهدات الروحية ، والعبادات . . وفى إطار الكتاب والسنة .

وفى القرن السادس انتشر التصوف ، متمثلاً فى الطرق الصوفية على يد «أحمد الرفاعى»، و «عبد القادر الجيلانى» . وفى القرن السابع الهجرى انتشرت الطرق الصوفية بعيدة عن التفلسف ، معتمدة على الزهد والتقوى ، والخوف من الله ، وحب الله . . واتخذوا من كل ذلك وسيلة إلى القرب من الله عز وجل .

وإذا كان الفقهاء قد هاجموا الشَّطَحات التى ظهرت من بعض رجال التصوف ، خاصة أنه دخل هذا المجال بعض الأدعياء الذين ادّعوا أنهم مُعْفَوْنَ من التكاليف الدينية !! ومن ثَمَّ خرج من رجالِ التصوف من يَرُدُّ على افتراءات هؤلاء الغلاة من أمثال «عبد الكريم القُشَيرى» ، المتوفى سنة ٤٦٥هـ ، صاحب «الرسالة القشيرية» التى صنعها فى التصوف ورجال الطريقة . وبعده حجة الإسلام الإمام «أبو حامد الغزالى» صاحب المصنفات العظيمة فى التصوف ، ومنها «إحياء علوم الدين» ، وغيرها . . وقد رَدَّ هؤلاء على الأدعياء المنتمين إلى المتصوفة ، حتى يعود للتصوف وجهه المشرق السليم المبنى على الكتاب والسنة . .

فإذا كان الصوفية قد زهدوا فى هذه الحياة الدنيا ، فلهم فى الرسول الأعظم القدوة والمثال . .

وإذا كان هدف الصوفية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، فهذا التقرب يكون بالعبادات التي فرضها الدين الحنيف، وقراءة القرآن الكريم، وعدم الانحراف عَمَّا نَادَى به الإسلام من تعاليم ، متمسكين بالحديث القدسى :

« من عادى لى وَلِيًّا فقد آذنتُه بالحرب . . وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عبد بشىء أحب إلَيَّ من أداء ما افترضتُه عليه . . ولا يزال عبدى يتقرب إلَيَّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه » .

وبذلك نبذ الصوفية هؤلاء الأدعياء ، الذين يَدَّعُون إلغاء التكاليف ، فلابد من إقامة الشريعة للوصول إلى الحقيقة !

وعندما بدأ الصليبيون حملتهم المسعورة يريدون ذهب الشرق، ونهْب ثرواته باسم الدين، اتَّحَدَ المسلمون لدَرْءِ الخطر الذى بدأ فى غزو الشام فى القرن السادس الهجرى . .

وكان للصوفية دورٌ مهم فى هذه الحروب، فقد شجعوا على قتال الصليبيين، وكانت لهم إسهاماتهم الفعالة فى هذا المجال فى إثارة النخوة والحمية والحماسة ، وفى رفع الروح المعنوية للجنود المسلمين، وتقديم أرواحهم رخيصة فى سبيل الذَّوْد عن بلاد الإسلام ، مما جعل «صلاح الدين الأيوبى» ـ الذى انتصر على أعدائه فيما بعد فى معركة (حطين) وغيرها من المعارك ـ أن يحتفى بهؤلاء الصوفية، بأن أقام لهم «الزوايا» بنفس الحماس الذى أقام به المدارس لأهل السنة .

وقد ازدهر التصوف فى العصر الأيوبى، وبرز من هؤلاء المتصوفة «محيى الدين بن عربى»، الذى انتقل إلى دمشق، وتوفى بها سنة ٦٣٨ هـ .
و«عمربن الفارض» الذى ولد فى مصر ودفن تحت ثراها، وترك أثرًا عريضًا بعد وفاته سنة ٦٣٢ هـ .

جاء «كمال الدين الفارض السعدى» إلى مصر مهاجرًا ، قادمًا من «حماة» بالشام . . وكان الرجل على جانب كبير من العلم والفقه، بجانب ورعه وتقواه .

وقد عمل فى أول الأمر بعمل له صلة بالقضاء، ومن هنا سُمِّىَ بالفارض، لأنه كان يقوم بكتابة فروض النساء على الرجال . ثم عُيِّنَ نائبًا عن الخليفة فى القاهرة، وعندما عُرِضَ عليه منصب قاضى القضاة رَفَضَ هذا المنصب ، ليتفرغ للعبادة فى الجامع الأزهر ، وظل على هذه الحال إلى أن لقى ربه تعالى راضيًا مَرْضِيًّا .

وقد ولد له «عمر بن الفارض» فى القاهرة سنة ٥٧٦ هـ ، وكان العصر هو بداية العصر الأيوبى فى مصر . .

ولأنه وُلِد فى هذا البيت المحب للعلم والدين، فقد درس «عمر بن الفارض» علوم الدين والتصوف ، وتتلمذ على كبار علماء عصره من مصر ومن الوافدين إليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامى، أمثال «ابن عساكر» و«الحافظ المنذرى» .

وكان والده يشجعه على الزهد والتصوف . . ويشجعه على الذهاب إلى وادى المستضعفين بالجبل المقطم حتى يخلو بنفسه ، وحتى يقوم بالعبادة والنُّسُك، ومن ثَمَّ تاقت نفسه إلى هذا العالم الجميل، عالم الروحانيات البعيد عن الترف والخمول واللهو .

لقد تاقت نفسه إلى ما عند الله . . وآثر أن يعيش لله وبالله . . كما تاقت نفسه أن يفتح الله عليه من العلوم اللَّدُنية حتى يشعر بتلك النشوة التى لا يشعر بها إلاَّ من يتذوق حلاوة الإيمان ، وجمال اليقين، وروعة القرب من الله .

وكان من الممكن أن تظل حياة «ابن الفارض» تسير على نفس هذه الوتيرة . . إنسان عاش للزهد والعبادة ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الذين يفضلون العيش فى وادى المستضعفين ، فيعيشون عيشة الزُّهَّاد والصوفية إلى أن ينتهى أَجَلُهم ويُوَسَّدُون الثَّرَى . .

ولكن حَدَثَ ما غيَّر وجه الحياة عند «ابن الفارض» . . فقد قيل إنه دخل ذات يوم إلى الجامع لصلاة الجمعة ، وكان الخطيب يخطب فى المصلين، ومن المفروض أنه عندما يقوم الخطيب بالخطابة يلزم الجميع الصمت والاستماع إلى ما يقوله ، ولكن «ابن الفارض» فوجىء برجل بدلاً من أن ينصت لخطبة الجمعة أخذ يُغَنِّى !! وارتسمت علامات استفهام كثيرة فى ذهن «ابن الفارض» . . ما الذى حَدَا بهذا الرجل إلى الغناء وعدم الاحتفاء بالخطيب ؟ وعزم أن يقوم بتأديب هذا الرجل بعد الانتهاء من الصلاة .

وانتهت الصلاة . . وتوجه «ابن الفارض» نحو الرجل .

ولكن الرجل قال له :

قَسَمَ الإلٰـهُ الأمْرَ بَيْـنَ عبادِهِ

فالصَّبُّ ينشدُ والخَلِيّ يُسَـبِّحُ

ولَعَمرىَ التسبيحُ خيرُ عبادةٍ

لِلنَّاسِكين وذا لقومٍ يصلُحُ .

وأيقن «ابن الفارض» أن هذا الرجل لم يكن يُغنى . . ولكنه كان فى حالة وَجْدٍ .

وهناك حادث آخر ساعد فى تحول «ابن الفارض» إلى الصوفية وسلوك طريق الحقيقة، فقد كان «ابن الفارض» كثير السياحة إلى الأماكن الخلوية فى المقطم . . يتأمل ويتعبد . .

وذهب ذات يوم للصلاة فى أحد مساجد الحنفية (المدرسة السيوفية) . . فوجد شيخًا بَقَّالاً يتوضأ وضوءًا غير مرتب، فاعترض عليه «عمر بن الفارض» قائلاً : يا شيخ ، أنت فى هذه السِّنِّ فى دار الإسلام وعلى باب المدرسة بين الفقهاء وتتوضأ وضوءًا خارجًا عن ترتيب الشرع ؟! فالتفت إليه الشيخ البقّال وقال له : « يا عمر ، أنت ما يُفتح عليك فى مصرٍ، وإنما يُفتح عليك بالحجاز فى «مكة» شَرَّفَها الله ، فاقصدها ، فقد آنَ لك وقت الفتح» .

فَعَلِم «ابن الفارض» أن الرجل من أولياء الله تعالى ، وأنه يتستر بالجهل حتى لا يلتف الناس حوله ، ومن ثم يشغلونه عن عبادة ربه . واستجاب «ابن الفارض» للشيخ البقَّال، وعلم أن هذا الرجل هو شيخه الحقيقى . . وسافر إلى الحجاز، وعاش فى مكة . . وتقلب بين مختلف أماكنها، وهو يتذكر أنه يعيش الآن فى مكة ، البلد الذى ولد فيه النبى الخاتم عليه الصلاة

والسلام، وفوق ثراه عاش ، وجاءه فيه وحى السماء، وجاهد وهو يُبَلِّغ رسالة ربه . . فآمَنَ مَنْ آمن . . وكَفَرَ مَنْ كَفَر ، ولكن الرسول أدى الرسالة على أكمل وجه ، برغم ما أصابه من أَذَى المشركين ، إلى أن هاجر منها إلى المدينة . . وخاض مع المشركين الكثير من المعارك حتى تحقق النصر، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . . ثم بدأ الإسلام زحفه الساحق بعد ذلك فى زمن الخلفاء الراشدين لينطلق إلى آفاق مختلفة، ويقضى على إمبراطوريات عاتية ، كإمبراطوريتى الفُرْس والروم ، وينتشر نور الإسلام فى كل مكان ، وفى كل قارات العالم المعروف .

وفى غار حراء كان يتعبد ويتحنث قبل المبعث . . إلى أن جاءه الوحى وهو فى الغار، لتنزل أولى آيات القرءان الكريم :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ صدق الله العظيم

[سورة العَلَق ، الآيات من ١ ـ ٥]

هنا مهبط الوحى . .

وهنا كانت بداية انتشار الإسلام . .

وهنا بيت الله الحرام الذى أقام قواعده أبو الأنبياء «إبراهيم الخليل» عليه السلام . . وأصبح قِبْلَة المسلمين فى صلواتهم .

إنها أرض تفوح منها عبق الروحانيات .

أخذ «ابن الفارض» يتعبد ويتهجد . . وعبر على الأماكن التى سارت عليها خطى الرسول ، حتى شفَّت روحه ، وامتلأ قلبه بالفتوحات الربانية . لقد عاش خمسةَ عشَرَ عامًا فى ربوع الحجاز، ثم عاد إلى وطنه . . عاد إلى مصر إنسانًا آخر . إنسانًا عميق الإيمان بالله . . شديد الحب له . . شديد

الحنين إلى موطن النبوة أيضًا . . حيث كان الحنين مازال يشده إلى أرض الرسالة الخالدة . . وقد عَبَّرَ عن ذلك بقوله :

يـا سَمِيرى رَوِّحْ بمكةَ رُوحِى
شاديًـا إنْ رَغِبْتَ فى إسْعَادِى
كانَ فيها أُنسِى معراجُ قُدْسِى
ومُقامِى المَقَامُ والفتحُ بَـادِى .

كما نشعر بهذه الأشواق فى قصيدته التى مطلعها :

أَوَمِيضُ بَـرْقٍ بِالأُبَيْرِقِ لاحَا
أَمْ فى رُبَى نَجْدٍ أرَى مصباحَا

وفيها يقول :

يـا راكبَ الوجنـاءِ وُقِّيتَ الرَّدَى
إنْ جُبْتَ حَزْنًا أو طَوَيْتَ بِطاحَا
وسلكتَ نُعمـانَ الأَرَاكِ فَعُجْ إلى
وادٍ هنـاك عَـهِـدتُــه فَـيَّـاحَـا
واقـرَ السَّلامَ أُهَيْلَـه عنِّـى وقُـلْ
غَـادَرتُـه لجنـابِـكُم مُـلْـتَـاحَـا
قسمًـا بمكـة والمَقـامِ ومَـنْ أَتَـى
البيـتَ الحـرامَ ملبِّـيًـا سَـيَّـاحَـا
مَا رَنَّحتْ ريحُ الصَّبَا شِيحَ الرُّبا
إلا وأهـدتْ مـنـكُـمُ أرْوَاحـا .

ويُرْوَى أن شيخه «البقال» استدعاه من مكة ليعود إلى مصر، فقد شعر أن شمس حياته فى طريقها إلى الغروب، وأن عليه أن يعود إلى ثرى الوطن، حتى يمكنه أن يُشَيِّعَهُ إلى مثواه الأخير، قريبًا من المكان الذى شاهد تعبّده فى وادى المستضعفين فى المقطَّم، فعاد إلى أرض الوطن ولبى رغبات شيخه .

ويقول الرواة : إن «ابن الفارض» كان شديد الوسامة، متواضعًا، محبًّا للناس، أَلُوفًا . . وبرغم معرفة الناس بالمنزلة الروحية التى وصل إليها «ابن الفارض» ، فإنه لم يكن يسمح لأحد أن يُقَبِّلَ يده . . وظل طوال حياته متمسكًا بالقرآن والسنة، فلم يقترف بدعة، بل ظل مواظبًا على فروض الإسلام، مُكثرًا من النوافل والصوم، مُعْرِضًا عن الدنيا، زاهدًا فيها .

ومعروف أن «ابن الفارض» تزوج وأنجب، فلم يعش حياة رهبانية، ولكنه كان شديد الحب لله . . وانعكس هذا الحب فى وجدانه، فأصبح يتعاطف مع المحبين . . أليس هو القائل :

أهفُو إلى كُلِّ قلبٍ بالغَرامِ لَهُ
شُغُلٌ وكُلِّ لسانٍ بالهَوى لهِجُ
وكُلِّ سَمْعٍ عن اللاَّحِي به صممٌ
وكلِّ جفنٍ إلى الإغْفَاءِ لم يَعُجِ
لا كان وَجْدٌ به الآماقُ جَامِدَةٌ
ولا غرامٌ به الأشواقُ لم تَهِجِ
عَذِّبْ بما شئتَ غيرَ البُعْدِ عنك تَجِدْ
أَوْفَى مُحِبٍّ بما يُرضيك مبتهِجِ

وخُـذْ بقيـة مـا أبـقيـتَ مـن رَمَـقٍ
لا خيرَ فى الحُبِّ إنْ أَبْقَى على المُهَجِ

ويروى الرواة أيضًا أن «ابن الفارض» كان عازفًا عن السُّلطة والسلطان. . فهو لم يتقرب يومًا إلى حاكم أو أمير ، ولا نازعته شهوة الشهرة، أو أن يكون معروفًا عند الناس، بل كان كلُّ همه أن يكون فى رضًا من الله والناس .

كان محبًّا للناس، محبًّا للضعفاء والمساكين منهم ، ولكنّ حبه الأكبر كان للذَّات الإلٰهية. . هذا الحب الذى أفصحتْ عنه قصائدُه التى تَرَنَّم بها فى الحجاز وفى مصر .

وأكبر دليل على عزوفه عن متاع الحياة الدنيا، وعن الحكام. . ما حدث بينه وبين السلطان «الكامل» ، حاكم مصر فى العهد الأيوبى. .

وخلاصة ما حَدَثَ، أن السلطان «الكامل» كان يجلس ذات يوم مع بعض العلماء ومحبى الأدب ، وتطرق الحديث إلى قوافى الشعر، وأن أصعب هذه القوافى قافية «الياء» الساكنة ، وإذا بأحد الحضور الذين كانوا على صلة بابن الفارض يحدثهم عن «ابن الفارض» ، الذى استطاع أن يكتب قصيدة طويلة فى مائة وخمسين بيتًا ، وهى (يائية ابن الفارض)، والتى مطلعها :

سائِقَ الأظْعانِ يَطْوى البِيدَ طَىّْ
مُنعِمًـا عَـرِّجْ على كُـثْبانِ طَـىّْ

وقرأ القصيدة لأنه كان يحفظها .

وأراد السلطان «الكامل» أن يبعث إلى «ابن الفارض» ألف دينار لإنفاقها على المتصوفة، وحاول الرجل أن يقنع السلطان بأن «ابن الفارض» لا يقبلُ

هدايا من أحد ، ولكن السلطان أصَرَّ ، وأخذ الرجل المال واتجه إلى الجامع الأزهر، حيث كان «ابن الفارض» معتكفًا به ، وما كاد يراه، وقبل أن يحدثه عن المال الذى أوْصَى به السلطان ، قال له «ابن الفارض» :

ـ مالك ولذكرى فى مجلس السلطان ؟! رُدَّ الذهب إليه !

فما كان من الرجل إلاَّ أن رَدَّ المال لصاحبه بعد أن شاهد غضب «ابن الفارض» لذكره اسمه فى حضرة السُّلطان .

وكان من الطبيعى ألاَّ تمر هذه الحادثة بسهولة على السلطان الذى تعجب أن يكون هناك من يرد المال، ولكن وجد ذلك فى هذا الرجل الصوفى الزاهد ، فقرر أن يقوم بزيارته .

واتجه السلطان بالفعل إلى الأزهر الشريف ، وأحسّ «ابن الفارض» بأن السلطان فى طريقه إلى المسجد ، فخرج من باب آخر ، واتجه إلى الإسكندرية ، حتىٰ لا يرى السلطان ولا يراه السلطان .

وظل فى الإسكندرية أيامًا ، ولكنه شعر بالمرض ، فعاد إلى القاهرة . وعندما تناهى إلى سَمْع السلطان الحالة الصحية لابن الفارض ، عَرَض عليه أن يُقيم له قبرًا بجوار قبره الذى أعده لنفسه بقبة الإمام «الشافعى» ، فلم يوافق «ابن الفارض» .

وانتقل «ابن الفارض» إلى جوار ربه سنة ٦٣٢ هـ ، ودُفن تحت قدمى شيخه «البقال» فى القرافة بسفح المقطم قريبًا من الوادى الذى تعبَّدَ فيه وعرف حبه وأشواقه إلى الخالق العظيم .. وهذا القبر تحت مسجد العارض، وقد قال سبطه «علىّ» فيه :

جُزْ بالقرافةِ تحت ذيْـلِ العَـارِضِ
وقُلِ السلامُ عليكَ يَا بْنَ الفارِضِ
أبْرزتَ فى نَظْمِ السُّلـُوكِ عجَـائبًـا
وكشفْتَ عن سرٍّ مصُونٍ غامضِ
وشربتَ مـن بـحـرِ المحبةِ والوَلاَ
فَرُويتَ مـن بحرٍ محيطٍ فـائضِ

انتهت حياة هذا الصوفى الكبير ، وبقيت أشعاره تدلّ على مَوَاجِدِه العظيمة ، وتدل على أن شعره كان انعكاسًا لنفسٍ طاهرةٍ مطمئنة ، فهو يرى أن كل الموجوداتِ كشفٌ عن جلال الله سبحانه ، فهو القائل :

تـراهُ إنْ غَـابَ عنِّى كُلُّ جـارحـةٍ
فى كُلِّ مَعْـنًى لطيفٍ رائـقٍ بَـهِـجِ
فى نَغْمَةِ العُودِ والنَّاىِ الرَّخِيمِ إذا
تـآلَـفَـا بيـن ألحـانٍ مِـنَ الهـزَجِ
وفى مَسَـارِحَ غِـزْلانِ الخمائـلِ فى
بَـرْدِ الأصائِلِ والإِصْبَاحِ فى البَلَجِ
وفى مَسـاقطِ أَنْـدَاءِ الغَمَـامِ عـلى
بِسَاطِ نَوْرٍ مـن الأزْهَـارِ مُنْتَسِجِ
وفى مَسَاحِبِ أَذْيَالِ النسيم إذا
أَهْـدَى إلَىَّ سُحَيْرًا أَطْيَبَ الأرجِ

لقد مات سلطان العاشقين بعد وصوله إلى مصر بأربع سنوات، عاش بين الناس كالطيف الجميل، وانتهت رحلة حياته فى الدنيا الفانية، وبقى شعره يدل على شفافية روحه، وقوة شاعريته . . كما كان شعره انعكاسًا لوجدانه .

لم يكن شعره متكلَّفًا ، بل كان شعره يعبّر عن تجربة روحية عميقة ، فيها من الجمال والجلال ما جعلها يُكتب لها الخلود ، كأجمل ما قيل فى الحب الإلهى .

الحب سِمَةٌ من سمات المتصوفة فى كل العصور . . فما أكثر ما قيل عن الحب والأشواق . . وكم تحدث الصوفية عن الحب الإلهى ، وما يشعرون به من جلال الله وهيبته .

و «عمر بن الفارض» يدور شعره حول هذا الحب الإلهى ، والشوق إلى ما عند الله ، والسُّكْر بالخمرة الإلهية .

وهنا يبرز تساؤل : هل أحب «ابن الفارض» حبًّا إنسانيًّا خالصًا ؟ وهل عرف مواجد هذا الحب فانعكس ذلك على شعره ؟

يورد لنا الدكتور «محمد مصطفى حلمى» ، فى كتابه «ابن الفارض والحب الإلهى» ما يستدل على أن «ابن الفارض» أحب حبًّا إنسانيًّا يصوره الشاعر فى قوله :

ولـمـا تلاقـيْنا عشـاءً وضَـمَّـنَـا
سـواءُ سَبِـيـلَىْ دَارِهَـا وخِـيَـامـى
وَمِلْنَا كذا شيئًا عن الحىِّ حيث لا
رقـيـبٌ ولا وَاشٍ بِـزُورِ كَـلامِ

فرشتُ لها خدِّى وِطاءً على الثَّرى

فقالت لك البُشْرى بِلثْم لِثَامِى

فما سَمَحَتْ نَفْسِى بذلك غَيْرَةً

على صَوْنِهَا مِنّى لِعِزِّ مَرَامِى

وَبِتْنَا كما شاء اقْتراحِى على المُنَى

أَرَى المُلْكَ مُلكِى والزمانَ غُلامِى

ويرى الباحث أنه إذا أخذنا هذه الأبيات على ظاهرها، رأينا أن الشاعر قد كشف فيها عن نفسه، وعما بلغته هذه النفس من الروحانية والصفاء، والتنزه عن شهوات البدن، وليس أدل على هذا كله من أنه وقد التقى بمحبوبته، ومنحته هذه المحبوبة قُبْلَة، لم يُبِحْ لنفسه أن يظفر بها، بل هو قَنَعَ بأن يقضى ومحبوبته ليلتهما على المنى! فذلك عنده خيرٌ وأبقى!

وقد ذهب أحد شُرّاح ديوان ابن الفارض ـ وهو «حسن البورينى» ـ إلى أن كلام الشيخ ـ ابن الفارض ـ ليس منزَّلًا بأسره على قانون الحقيقة، فكثيرًا ما نرى فيه ما لا يصلح للمجاز. واستدل «البورينى» على ذلك بقول «ابن الفارض» فى هذا البيت:

أَهْوَاهُ مُهَفْهَفًا ثقيل الرِّدْفِ

كالبَدْرِ يَجِلّ حُسْنُه عن وصْفِ

ويقول فى هذا أيضًا:

ما أحسن ما بِتْنا معًا فى بُرْدِ

إذْ لاصَقَ خَدُّه اعتناقًا خَدِّى

ويستعرض الباحث ما قاله «النَّابلسى»، فهو يذهب فى فهم هذين البيتين مذهبه فى شرح ديوان ابن الفارض كله، فَيُحَمِّلهما من المعانى الخفية والحقائق الإلهامية ما يطيقان ومالا يطيقان .

فهو يفسر «مهفهفًا» فى البيت الأول بأنه كناية عن صورة التجلى الإلٰهى من حيث الأسماء الجمالية فى حقيقة الروح الأعظم . ويفسر «ثقيل الرِّدْف» بأنها إشارة إلى جميع العوالم المكتوبة بالقلم فى اللَّوْح المحفوظ، الذى هو نفس العلم بالنور المحمدى، المخلوق فيه ومنه كل شىء. ويفسر «البدر» بأنه القمر ليلة التمام بظهوره فى ظلمة الأكوان .

كما يشهد العارفون بالعيان من قوله ﷺ : «إنكم سَتَرَوْنَ ربكم كما تَرَوْنَ القمر فى ليلة البدر» .

وإلى مثل هذا يذهب «النابلسى» فى تفسير البيت الثانى، فيجعل من ألفاظه كنايات، ومن عباداته إشارات .

ويرى باحثنا أنه مهما يكن من مذهب «النابلسى» وغيره فى شرح شعر «ابن الفارض» ، وتأويله كله تأويلاً صوفيًّا، فإن ذلك لا يمنع من أن نفترض أن يكون «ابن الفارض» قد أحب فى حياته الأولى حُبًّا إنسانيًّا كانت مرآته هذه الأبيات، ثم انصرف عن هذا الحب، أو انصرف عنه هذا الحب لأمرٍ مًّا، فإذا هو يحب حبًّا من نوع آخر، هو هذا الذى اتخذ فيه من الذَّات الإلٰهية موضوعًا.

وبعد أن يتحدث الباحث عن «النابلسى» فى شرحه لشعر «ابن الفارض» وَتَأْوِيلِهِ تأويلاً صوفيًّا، انتقد أيضًا مَنْ دَرَسَ شعره على ظاهره، ويرى أننا كلما حلَّلْنَا شعر «ابن الفارض» إلى عناصره، تَعرَّفْنَا على طبيعته. . وإننا نتساءل أولا :

ـ هل أحب «ابن الفارض» حُبًّا إنسانيًّا ؟

ويجيب :

ـ الحق أنه ليس لدينا عن حُبٍّ كهذا معلومات مفصلة يمكن أن نتبين من خلالها هل أحب الشاعر قبل أن يتجرد ويتصوف ، حُبًّا إنسانيًّا أم لا، ولعل ما وصَلَ إلينا فى هذا الصدد هو ما يُرْوى من أنه صعد منارة المسجد، فرأى امرأة جميلة فوق سطح بيت ، فاشتعل قلبه ، وهام مع الهائمين . ويقال إن تلك المرأة كانت زوجة أحد القضاة .

ومما ذكره «ابن خِلِّكان» وغيره من المترجمين ، أنه أحب غلامًا جميلاً، وقد يذهب البعض إلى أن فى حب «ابن الفارض» لهذا الغلام ، ما يمكن أن يعلل به مخاطبته محبوبه أو تحدثه عن محبوبه بضمير المذكر المخاطب أو الغائب، ولا يكاد المترجمون يذكرون شيئًا عن تاريخ حب «ابن الفارض» لهذا الغلام، أو هيامه بتلك المرأة، متى وفى أيِّ طَوْر من أطوار حياته كان هذا الحب أو ذاك .

ويقول الباحث ما ملخصه : أنه ليس بعيدًا أن يكون «ابن الفارض» قد أَحَبَّ ، ولكنه تَسامَى بحبه ، ومن هنا كان التحول فى حياة «ابن الفارض» العاطفية ، والانتقال من مرحلة الحب الإنسانى إلى مرحلة الحب الإلٰهى . أو قُلْ : كان التسامى بعاطفته عن هذه الأرض ، وتركيزها فى حب مَنْ جماله أتَمُّ وأكمل من كل ما فى السمٰوات والأرض وما بينهما .

ثم يحدثنا الباحث عن حبه الإلٰهى الذى تُمثله أهم قصائده على الإطلاق ، وهى «التائية الكبرى» ، و «الخمرية» .

***

ولنقف عند بعض أشعاره فى الحب الإلهى . . ونقرأ له قوله عن الخمرة الإلهية :

يقولُون لى : صِفْها فـأنـتَ بوصْفِهَـا
خبيرٌ، أجَل عندى بأوْصافِها عِلمُ
صفـاءٌ ولا مـاءٌ ولُطـفٌ ولا هَـوًا
وفـورٌ ولا نَــارٌ وروحٌ ولا جسـمُ
تقدَّمَ كـلَّ الكـائنـاتِ حديثُهـا
قديمًا ولا شكـلٌ هنـاك ولا رسْمُ
وهـامتْ بها روحى بحيثُ تمازَجَا
اتحـادًا ولا جِــرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِــرْمُ
ولا قبلهـا قبـلُ ولا بَعْـدَ بعدِهَـا
وقَـبْـلِـيَّـةُ الأبعـادِ فهى لها حتْـمُ

وعن هذه الأبيات يقول الدكتور «شوقى ضيف» ـ فى دراسته عن «ابن الفارض» ـ إن «ابن الفارض» يصرح بأن المدامة التى شرب من دَنّها ليست مقيدة بالمادة، وأشكالها من ماء ونار وجسم، بل هى نورٌ روحانى صافٍ ، نور يتقدم كل الأكوان بكائناتبا ومظاهرها، قبل أن يتخلق أىُّ شكل، وأىُّ رسم، وأىُّ وجود .

وهو نور كانت تمتزج به حينئذ وتتحد أَقْبَاسُ الأنبياء وتابعيهم من المتصوفة حين كانت لا توجد سوى الحقيقة الإلهية متحدة بالحقيقة

المحمدية . أو بعبارة أخرى : «حين لم يكن يوجد سوى الله مدبر الكون فيما بعد ومُنْشِئِهِ ومُبدعه بكل ما فيه من جواهر وأجرام وأجسام، حين كان متفردًا بوجوده الأزلى الذى لا سابق له ولا نهاية . فهو الأول ، وهو الآخر ، وهو الأزلىّ الخالد ، أصل كل الكون ، ونبع كل الوجود » .

***

وتائيته الكبرى تضم ٧٦١ بيتًا من الشعر ، وهى تعبر عن مواجده عندما كان فى مكة ، ومن هنا أسماها «نَظْم السُّلوك»، وكيف تحمَّل ما تحمل حتى يصل إلى هذا الحب الإلهى . . وبرغم ما صادفه من صعوبات ، فإن هذه الصعوبات مِنَحٌ وليست مِحَنًا :

وما حلَّ بى من محنةٍ فهو منحةٌ
وقد سَلِمَتْ من حَلِّ عَقْدِ عزيمتى
وَما رَدَّ وجهى عن سبيلكَ هولُ ما
لقيتُ ولا ضراءُ فى ذاكِ مَسَّتِ
وعن مذهبى فى الحبِ ما لِى مذهبٌ
وإنْ مِلْتُ يومًا عنه فَارَقْتُ مِلَّتِى

ويرى الدكتور «شوقى ضيف» وهو يشرح « التائية» التى جعلها لوصف معراجه الروحى أنه متمسكٌ بالكتاب والسنة، وأنه يصدر عنهما فى كل موارده الروحية، وأنه لا عمل للقلب بدون عمل الجوارح. وبعبارة أخرى: لا عمل للحقيقة بدون الشريعة وشعائرها من فرائض ونوافل، إذْ هى منبع المحبة، وبابها الذى يؤدى إلى الوصال وعالم الشهود .

ويختتم «ابن الفارض» تائيته بأن اختلاف الديانات من سماوية ومن وثنية، أو من إسلام ونصرانية ويهودية، إنما هو بِقَدَرٍ مقدور على العباد، وقضاء قضى به الله، ولا رَادَّ لقضائه .

ويشير إلى حديث جاء فى قصة خَلْق آدم، وفيه أن الله لما خلق آدم قبض على ذُرِّيته بيديه، وقال لمن فى إحداهما : هؤلاء فى الجنةولا أبالى . . وقال لمن فى الأخرى : هؤلاء فى النار ولا أبالى .

يقول «ابن الفارض» :

يُصَرِّفُهُمْ فى القبْضَتَيْن ولاَ ولاَ
فقبضةُ تَنعِيمٍ وقبضةُ شِقْوة .

فالله تعالى جمع البشر فى قبضتين ولا موالاة لهم منه، بل كلهم بيديه، فمنهم سعيد وشقى، فأمَّا السعيد ففى الجنة والنعيم، وأما الشقى ففى النار والجحيم . . قضاء نَافِذٌ لا مَرَدَّ له .

ويقول «ابن الفارض» : إن كل شخص ينبغى أن يذعن إلى هذا القضاء، ويعلم أن كل أمر مفوَّض إليه جل شأنه .

ويتحدث عن شهوده لربه وما أشرق عليه فيه من نورٍ قُدسىّ تمتزج فيه الأشعة الإلٰهية بالأشعة المحمدية، وما انتهى إليه من الشهود الربانى فى صَحْوِهِ، مما أشاع الابتهاج فى قلبه، وجعله يشعر فى عمق بأن المتصوفة من حوله وفى عصره إنما يشربون السُّؤْر المتبقى منه فى دَنِّ المحبة الإلٰهية .

ولابن الفارض وراء ذلك مواليات ورباعيات يبث فيها وَجْدَهُ الصوفى، مثل قوله :

روحى لَكَ يـا زَائِرُ فى اللَّيلِ فِـدَا
يا مُؤْنِسَ وَحْشَتى إذا اللَّيْلُ هَدَا
إنْ كان فِراقُنـا مـع الصُّبْحِ بَـدَا
لا أَسْفَـرَ بَعْدَ ذَاكَ صُبْـحٌ أَبَـدَا

فمحبوبه يؤنسه بزيارته حين يهدأ الليل ويسكن ، وهو يُقدم له روحه فداءً، فهى كل ما يملكه، وهو يبذلها له مخلصًا صادقًا حتى يَتَّحد به ، وينعم بشهوده . ويتمنى له دوام هذا الشهود .

ويقول : إن كان الشهود سينقطع مع الصباح ويحدث الفراق المخيف فيه ، فلا أسفَرَ صباحٌ، ولا طلع نهار .

ويرى الدكتور «شوقى ضيف» أن عباراته تدنو فى الرباعيات والمواليات من اللغة الشعبية ، على الأقل فى بعض جوانبها ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه كان ينشدها فى حلقات الذكر، بل إن أشعاره كلها أُنشدت فى تلك الحلقات ، إن لم يكن هو الذى أنشدها جميعًا ، فقد أنشدها معاصروه ، ومَنْ جاءوا بعدهم، إذ عَدَّها الناس فيضًا إلٰهيًّا، وتوالت أجيال منهم تحفظها وتنشدها وتكثر من غنائها ، وذلك لِمَا تجد فيها من متاع روحى يُغذى العقول، ويشفى القلوب .

***

إنَّ شعر «ابن الفارض» يفيض عُذُوبَةً ، ورِقَّةً، فهو شِعْرٌ يخاطب العقل والقلب. . حتى الغموض الذى نراه فى كثير من أشعاره غموض محبب، يبعد القصيدة عن المباشرة . . بل إن بعض أشعاره قد تجعل الإنسان يسأل كثيرًا عَمّا فيها من رموز ، وماذا يقصد من وراء هذه الرموز ؟

ومع ذلك فإن القارىء يجد لها متعة تحمله إلى آفاق من الروحانية المحببة، وتجعله يعيش فى جو ملىء بالجمال والجلال .

كان «ابن الفارض» شاعرًا كبيرًا .. وكان شعره صَدّى لتجاربه الروحية . . لم يتخيلها أو يتوهمها ، ولكنه عاشها ، وتأثر بها ، ونقل هذه المشاعر إلى الناس شعرًا جميلاً ، يتغنى بالذات الإلٰهية . . وبأن الحياة الحقيقية هى تلك الحياة المتصلة بالله ، عن طريق أداء فرائض الدين الحنيف ، ودون الخروج عن نطاق الشريعة . .

إن الحياة الحقيقية فى نظره تكون فى القرب من الله . . والقرب من الله يكون عن طريق الطاعة ، والزهد ، والتقشف ، والبعد عن زُخرف الحياة الدنيا الزائل ، والعمل من أجل حياة سعيدة بعد هذه الحياة الفانية . . وهذه هى الحياة الحقيقية . . فلا حياة بلا عبادة لله جَلَّ فى عُلاه ، وطاعته تتمثل فى البعد عَمَّا حَرَّم ، والنَّهى عن الفحشاء والمنكر ، والتأمل فى ملكوت الله العظيم .

والإنسان لا يصل إلى هذا الحب وهذه المنزلة من القُرْبِ إلاَّ بعد ممارسات ورياضات روحية تؤهل الإنسان لأن يكون فى عداد المحبين .

و «ابن الفارض» عاش الحياة التى تؤهله لهذا القُرب عندما ذهب إلى مكة ، وعاش بين ربوعها خمسة عشر عامًا متأملاً ، ومتعبدًا ، وطائفًا ، ومصليًا فى بيت الله الحرام . . وأُنسُهُ بالأماكن التى سارت على ثراها أقدام أعظم رسل الله ﷺ ، حتى إنه كان فى هذه الفترة المضيئة من حياته يأنس بالوحش ، ولا يأنس بالإنسان الذى قد يبعده عن السياحة فى عالم مملوء بالطُّهْر والصلاة والنقاء . . وهو يعبر عن ذلك بقوله :

وَجَنَّبَنِى حُبِّيكِ وَصْلَ مُعَاشِرِى
وَحَبَّبَنِى ما عِشْتُ قَطْعَ عَشيرتِى
وَأَبْعَدنى عَنْ أَرْبُعِى بُعْدُ أَرْبَعٍ :
شَبابِى ، وَعَقْلِى ، وَارتِياحِى ، وصِحَّتِى
فَلِى بَعْدَ أَوْطانِى سُكُونٌ إلى الفَلاَ
وَبالْوَحْشِ أُنْسِى إذْ من الإنْسِ وَحْشَتِى

وينطبق على «ابن الفارض» ما يقوله الصوفية : « مَنْ ذَاقَ عَرَفَ » .

وقد ذاق «ابن الفارض» ، وشعر بأحاسيس ومَوَاجِدَ عَبَّرَ عنها فى شعرٍ بالغ الجمال . . شعر يصور كيف كان مَنْ قُوتُه حُبًّا يذوب شوقًا إلى الجلال الأعظم، وينسى نفسه ولا يتذكر إلا تلك اللحظات التى تفيض عليه بالأنوار، وفنائه فى المحبوب .

وقد عبر عن هذه الحالة الإمام «أبو حامد الغزالى» بقوله : « . . . وهذه الحالة إذا غلبتْ سُمِّيَتْ بالإضافة إلى صاحب الحال : فناء ، بل فناء الفناء ، لأنه فنى عن نفسه ، وفنى عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحالة ، ولا بعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه ، وهذا الحال لا يستمر بطبيعة الحال ، بل يعود إلى الوعى بذاته وبالآخرين » .

وعلى حدّ تعبير الدكتور «أبو الوفا التفتازانى» : « . . . ويرى ابن الفارض أن تحقق المحب بشهود محبوبه ـ وهو الله ـ لا يكون إلا مع الغناء عَمًّا فى الحياة الدنيا من زُخْرف وجاه ، بل وعما فى الحياة الأخرى من جنة ونعيم ،

وعن جميع أوصافه وأهوائه وأغراضه، وعندئذ يكون خالصًا لله لا لشىء دونه».

واسمع إلى «ابن الفارض» قائلاً على لسان محبوبه :

فلا تَهْوَنى ما لم تكنْ لِىَ فانِيًا
ولم تَفْنَ ما لا تُجْتَلَى فيكَ صُورَتِى
فَدَعْ عَنْكَ دعوى الحبِّ وادْعُ لِغَيْرِهِ
فُؤَادَكَ وادْفَعْ عَنْكَ غَيَّكَ بِالَّتِى
وَجَانِبْ جَنَابَ الوَصْلِ، هيهاتَ لم يَكُنْ
وَهَا أنتَ حَىٌّ إن تكنْ صَادِقًا مُتِ
هُوَ الحبُّ، إنْ لم تَقْضِ لَمْ تَقْضِ مأربًا
مِن الحِبِّ، فَاخْتَرْ ذَاكَ أو خَلِّ خُلَّتِى

ويُعْرَفُ هذا الفناء عن «ابن الفارض» وغيره من الصوفية بالفناء عن شهود السِّوَى. على أنه ينبغى التنبيه إلى أنهم لا يقصدون به فناء ما سِوَى الله فى الخارج، وإنما هو عندهم فناء عن شهودهم له، وما ذلك إلا لاستغراقهم فى ذكر المحبوب وشهوده، فغابوا عمَّا سواه بالكلية .

* * *

والوحدة عند «ابن الفارض» تختلف عن وحدة الوجود عند «ابن عربى». . وفى ذلك يقول الدكتور « محمد مصطفى حلمى » :

« . . . إن هذا المذهب(مذهب ابن الفارض) لم يكن اتحاديًّا ، بمعنى أن الاتحاد فيه عبارة عن وحدة الوجود كما زعم «ابن تيمية» و «دى ماتيو»

وغيرهما من القدماء والمحدثين، بل كان واحديًا ، بمعنى أن الاتحاد فيه مرادف للشهود الذى هو حضور الذات وانكشافها لعين السالك . والفَرْقُ ما بين وحدة الوجود ووحدة الشهود كالفرق بين الحقيقة الواقعة فى ذاتها مستقلة عن حس الإنسان وشعوره وعقله، وبين الحقيقة من حيث تكون إدراكًا فى حالة خاصة، وتحت تأثير شعور معين.

إنّ «ابن الفارض» لم يكن خارجًا فى سلوكه ووجده عن الكتاب والسُّنَّة، لأن فناءه الذى كان سبيله إلى إدراك الوحدة لم يكن فناءً عن وجود السِّوَى، لكنه فناء عن شهوده وإرادته .

كان «ابن الفارض» علمًا من أعلام الصوفية فى زمانه، وظل اسمه يتردد فى مجال الصوفية إلى اليوم، لما تركه من تراثٍ عريض وفكرٍ عميق.. ففى شعره الصوفى نبضات روحية عميقة، ولمسات فلسفية تدل على معرفته وعلو منزلته، وقد ظهرت فى الكثير من أشعاره.

وقد أحبه الناس فى عصره، وكان يرفض أن يُقَبِّل أحد يده.

وكان من الطبيعى - مثله فى ذلك مثل كبار الشخصيات التى تركت بصماتها على التاريخ - أن يجد من يؤيده، وأن يجد أيضًا من يعارضه.

أما الذين أيدوه فهم هؤلاء الذين فهموه، وفهموا أن تصوفه لم يخرج عن الكتاب والسنة، فقد عاش مؤديًا فرائض الله، قارئًا للقرآن الكريم، مكثرًا من العبادات، ولم ينحرف فى أفكاره، فلم يُنادى بحلولٍ أو اتحاد.. إن هؤلاء الذين فهموه قَدَّرُوا مَوَاجِدَه وقَدَّرُوا زُهْدَه وورعه وتقشفه، وقدروا شعره الجميل الذى يشدو فيه بحب الله وحب رسوله ﷺ.

وهاجمه من لم يفهموا مذهبه، وظنوه يُنادى بالحلول ووحدة الوجود، فاختلط عليهم فهمه.. فحاربوه، وهاجموا شعره، من أمثال «ابن تيمية»

وغيره من الذين وجدوا فى شعره ما خُيِّلَ إليهم أنه يخرج عن دائرة الكتاب والسنة .

كما هاجمه بعض الفقهاء الذين يتمسكون بحرفية الكتاب والسنة، دون أن تمتد آفاق اجتهاداتهم إلى دائرة أعمق وأشمل من الفهم الحرفى لكتاب الله تعالى، وسُنَّة نَبِيِّه ﷺ .

وقد وقف بعض الفقهاء طوال حقب التاريخ ضد المتصوفة، متصورين أن هذا التصوف بعيد عن إطار الشرع الحنيف .

صحيح أن هناك بعض الصوفية الذين انحرفوا فى تفكيرهم، وبلغ بهم الهذيان مَدَاهُ حين تصوروا أنهم قد رُفعت عنهم التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وغير ذلك، وهو تَوَهُّمٌ قادهم إليه أساطير وخزعبلات أَوْدَتْ بعقولهم، فقالوا بمثل هذا الهَذَيان وهذه الأوهام .

وإذا كانت الصوفية الحقة قالت بأنه لا وصول للحقيقة إلا بالتمسك بالشريعة، فإن بعض الصوفية الذين انحرفوا عن هذا المسار لم يكن من بينهم «ابن الفارض» ، الذى صرح فى أشعاره بأنه لا يؤمن بالحلول أو غيره من الأفكار الدخيلة على الإسلام .

وليس معنى ذلك أن الرجل ليس عليه مآخذ ، فقد أخذ عليه البعض رؤيته بأن الأديان مختلفة من حيث الظاهر، أمَّا من حيث حقيقتها وجوهرها فهى واحدة، ومهما اختلفت صور العبادة فيها . .

من هنا نرى الدكتور «أبو الوفا التفتازانى» ـ وكان أستاذًا للتصوف، بل شيخًا للطرق الصوفية ـ يعترض على بعض آراء «ابن الفارض» ، فيقول : «إن عند ابن الفارض أن الأديان الثلاثة ـ وهى اليهودية ، والمسيحية،

والإسلام ـ منتظمة فى سلك واحد، هو سلك التنزيل الإلهى، وكذلك المجوس أيضًا عبدوا نور الذات الإلهية، متوهمين أنه النار، فيقول :

وَإِنْ نَارَ بالتنزيلِ مِحْرابُ مَسْجِدِ
فَمَا بَارَ بالإنجيلِ هَيْكَلُ بَيْعَةِ
وأَسْفَارُ تَوْرَاةِ الكليمِ لِقَوْمِهِ
يُناجِى بها الأَحْبَارُ فى كُلِّ لَيْلَةِ
وَمَا زَاغَتِ الأَبْصَارُ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ
ولازاغتِ الأفكارُ فى كُلِّ نِحْلَةِ
وَإِنْ عَبَدَ النَّارَ المجوسُ وَمَا انْطَفَتْ
كما جاءَ فى الأخبارِ فى أَلْفِ حُجَّةِ
فما قصدُوا غيرى وإنْ كان قصْدُهُم
سوايَ، وإن لم يُظهروا عَقْدَ نِيَّتِى
رَأَوْا ضَوْءَ نُورِى مَرَّةً فَتَوَهَّمُو
هُ نَارًا فَضَلُّوا فى الهُدَى بالأَشِعَّةِ

على أن كلام «ابن الفارض» فى هذا الصدد ، وإنْ بَدا أنه يعبر عن نزعة إنسانية فى الارتفاع عن التعصب لدين معين، إلا أننا لا نوافقه عليه، لمخالفته صراحة للعقيدة الإسلامية، فَعُبَّادُ الأصنام والنار وغيرهم من أصحاب المِلل المخالفة للتوحيد لا يمكن أن ندرجهم فى عداد أصحاب الملل الصحيحة، وتأويلُ «ابن الفارض» لمعتقداتهم تأويلٌ مسرف مُبَالَغٌ فيه.

وقد أعجبتنى دراسة للإمام الراحل الدكتور «عبد الحليم محمود» عن (الفلسفة والحقيقة)، والتى يتحدث فيها عن الفرق بين الفلسفة والدين، على أساس أن الفلسفة تعتمد على العقل، والعقل يخطىء ويصيب.. فى حين أن الدين يعتمد على الوحى، والوحى لا يخطىء.. ثم يتحدث كيف اختار موضوعًا لرسالته للدكتوراه فى باريس «الحارث بن أسد المحاسبى».. وكيف أنه شعر شعورًا واضحًا بمنهج المسلم فى الحياة وهو «منهج الأتباع»، فيقول: «إن ابن مسعود - رضى الله عنه - يقول كلمة موجزة عن هذا المنهج كأنها إعجاز من الإعجاز، إنه يقول:

- اتَّبِعُوا ولا تَبْتَدِعُوا فقد كُفِيتُم».

إنها كلمة حق وصدق، ثرية بالمعانى العريضة، يبرهن آخرها عن أولها، والنهى فى وسطها يبرهن عليه أيضًا آخرها.. أى: اتبعوا فقد كفيتم، والكافى هو الله سبحانه وتعالى الذى أَوْحَى المبادىء والأصول والقواعد. وطَبَّقَ رسولُ الله ﷺ كل ذلك وبَيَّنَهُ، فكان تطبيقه مقياسًا وبيانًا ومرجعًا يرجع إليه المختلفون: «ولا تبتدعوا فقد كُفيتم».

إن الذى يبتدع هو مَن لا كفاية له، ولكن الله سبحانه وتعالى بعد أن أكمل الدِّين وأَتَمَّ النعمة - ليس هناك مجال، ولا من حاجة إلى الابتداع. لقد كفانا الله ورسوله ﷺ ما يصلحنا من أمر الدين.

لقد كُفينا، وعلينا إذن الاتباع، ولا منهج لنا إلا الاتباع.

وبعد أن وَقَرَ هذا المنهج فى شُعورى، واستيقنته نفسى، أخذتُ أدعو إليه: كاتبًا، ومحاضرًا، ومدرسًا، ثم أخرجتُ فيه كتابًا خاصًا، هو كتاب «التوحيد الخالص»، أو «الإسلام والعقل».

ويمضى الدكتور «عبد الحليم محمود» قائلاً :

« وما فرحتُ بظهور كتابٍ من كُتبى مثل فرحى يوم ظهر هذا الكتاب ، لأنه هو خلاصة تجربتى فى حياتى الفكرية . . وكل ما كتبته عن التَّصَوُّف ، وعن الشخصيات الصوفية ، فإنما يسير فى فَلَك هذا المنهج . . منهج الاتباع » .

* * *

ومهما يكن من شىء فإن «ابن الفارض» إنسان . . والإنسان يخطىء ويصيب .

وقد أصاب الإمام «القُشيرى» الحقيقة عندما تحدَّثَ عن أهمية أن يتمسك الصوفى بالشريعة حتى لا يزلَّ ، فقال :

« إن الشريعة أمرٌ بالتزام العبودية . والحقيقة مشاهدة الربوبية . وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير مقبولة ، فالشريعة أن تعبد الله ، والحقيقة أن تشهد الله . الشريعة قيامٌ بما أَمَرَ ، والحقيقة شهودٌ لما قَضَى وقدَّرَ ، وأخفى وأظهر .

الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضًا شريعة من حيث أنها وجبت بأمره ، ويدرك ذلك العارف به سبحانه وتعالى » .

* * *

ومهما يكن من شىء ، فقد كان «ابن الفارض» شخصية بالغة الاستقامة فى عصره ، عندما التزم بطاعة الله ، وحب الله . . فأنشد فى «الذَّات الإلٰهية» أعذب ما كتبه الشعراء ، وما كتبه عن النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام ،

يجعله مُحِبًّا، بل «سلطان العاشقين» كما أَطْلَقَ عليه رُواة سيرته، ومَنْ تَصَدَّوْا لقصة حياته وشعره.

كما رَدَّدَ اسمه المثقفون فى العصور التى تلت عصره، وأيده البعض، وخالفه البعض، ولكنَّ المؤيدين والمعارضين لم ينكروا أنه كان شاعرًا كبيرًا، وأنَّ أشعاره لم تكن مجرد أشعار تلتزم بالوزن والقافية، بل فيها من الصور الفنية، والشحنات العاطفية الجارفة، ما يجعلها لوحات فنية خالدة على مَرِّ الأيام.

يقول الدكتور «محمد عبد الهادى أبو ريدة» : «تغنَّى الشعراء المؤمنون بحب الله ، واشتهر كثير من شعراء الفُرس أمثال «سعدى»، و «جلال الدين الرومى»، و «فريد الدين العطار» بتغنيهم بالحب الإلهى، لكنَّ شعر «ابن الفارض» جاء بالصورة العليا لذلك.. وهو شعر صادق، طويل النَّفَس، بعيد عن التكلف، لأنه فيضٌ عن قلب ملتهب بالحب.. وقد عاش «ابن الفارض» ما عاش وهو فى أعلى ذروة من المحبة لله. وكان قلبه يهتز من سماع كل ما يعبر عن عاطفة قوية أصيلة..».

ويسوق «أبو ريدة» هذه الأبيات لابن الفارض :

لا تَحْسَبُونى فى الهَوى مُتَصَنِّعًا

كَلَفِى بكُمْ خُلُقٌ بغير تَكَلُّفِ

أخفيتُ حُبَّكُمُ فأخفَانِى أَسَى

حتَّى لعمرِى كدتُ عنِّى أختَفِى

وكتَمْتُه عَنِّى فلَوْ أَبْدَيْتُهُ

لَـوَجَدْتَـه أَخْفَى مــن اللُّطْفِ الخَفِـى

ولقــدْ أقُـولُ لمـن تَحَـرَّشَ بـالهَــوَى :

عَــرَّضْتَ نَفْسَـكَ للبِلاَ فـاسْتَهْدِفِ

أنــت القتيـلُ بـأىِّ مَـنْ أَحْـبَـبْتَـهُ

فاخترْ لنفسِكَ فى الهوَى مـن تصْطَفِى

وهل هناك مَن هو أحق بأن يصطفيه الإنسان لقلبه من الله الذى منه هذا الخلق وإليه يرجعون ؟

لعله من الأفضل أن نعيش مع هذا الصوفى الشاعر من خلال بعض أشعاره. . تلك الأشعار التى سوف يجد القارىء نفسه وهو ينطلق معها بعقله ومشاعره : بعقله يحاول فَهْمَ ما يريد أن يقوله الشاعر من خلال هذه الأبيات وما فيها من الرموز الصوفية. . وفيها يحاول بقلبه أن يعيش هذه الأجواء الروحية الجميلة الجليلة .

إننى كثيرًا ما قرأتُ أشعارَ «ابن الفارض» ، وكثيرًا ما وجدتُ نفسى متجاوبًا معها، حتى لو لم أفهم فى بعضِ الأحيان ما يرمى إليه الشاعر الصوفى ، ولكنى أشعر أننى أُطْرَب، ويهتزُّ وجدانى بمعانٍ مفعمة غامضة، ولكنى أستريح إليها .

واقرأ معى قوله :

إن الغَـرامَ هـو الحيـاةُ فَمُـتْ بـه
صَـبًّا فحقُّـكَ أن تمـوتَ وتُعْـذَرَا
قُـلْ لِلَّذِيـنَ تقَدَّمُـوا قَـبْلِـى وَمَـنْ
بَعْدِى ومَنْ أضحى لأشجانِى يرَى

خُذُوا، وبِيَ اقتدُوا وَلِيَ اسمعُوا

وتَحَدَّثُوا بصبَابَتِي بين الـوَرَى

ولقد خَلَوتُ مع الحبيبِ وبيننـا

سِرٌّ أَرَقُّ من النسيـمِ إذا سَرَى

وأبــاحَ طرْفـى نظـرةً أمَّلتـهــا

فَغَدَوْتُ معروفًـا وكنتُ مُنكَّـرَا

فدُهِشْـتُ بين جمـالِهِ وجلالـهِ

وغـدَا لسـانُ الحـالِ عَنِّى مُخْبِرَا

فـأدِرْ لِـحَاظَكَ فى مَحَاسِنِ وجهِهِ

تلْقَى جميـعَ الحُسْنِ فيـهِ مُصَوَّرَا

لو أَنَّ كلَّ الحُسْنِ يكملُ صورةً

ورآهُ كـان مُـهَـلِّـلاً ومُـكـبِّـرَا

***

ومعنا قصيدتان قدمهما الباحث الشاعر الدكتور «صابر عبد الدايم» فى كتابه «الأدب الصوفى ؛ اتجاهاته وخصائصه». . والقصيدتان المختارتان ـ كما يقول الباحث ـ تمثلان هنا تجربتين متماثلتين، أو متواصلتين. . فالقصيدة الأولى يتحدث فيها «ابن الفارض» عن الخمر، والخمر رمزٌ أو مُعادِلٌ موضوعى كما نقول فى النقد الحديث .

وأمَّا القصيدة الثانية فتعبر عن التجربة الروحية الخفية، تجربة العشق

الخالص. فالشاعر حين ثبت قلبه فى آفاق المعرفة الإلٰهية، غابَ فى نشوتها، وطغى وجودها على وجوده، وهو فى حضورها فانٍ، وهى فى حضورٍ يستعصى على الغياب، وفناؤه متصل لا ينقطع، ولكنه فناءٌ غايتُه الخلود، وغيابٌ وسيلته الحضور.

يقول ابن الفارض :

« الخمريـــــة »

شربنا على ذكْرِ الحبيب مُدامَةً ... سَكِرْنَا بها من قبلِ أن يُخْلَقَ الكَرْمُ
لها البدرُ كأسٌ وهى شمسٌ يديرُها ... هلالٌ وكم يبدو إذا مُزجت نَجمُ
ولولا شَذَاها ما اهتديْتُ لحانِها ... ولولا سَناها ما تصوَّرَها الوهْمُ (١)
ولم يُبْقِ منها الدهرُ غيرَ حُشاشةٍ ... كأن خَفاها فى صدور النُّهَى كتْمُ(٢)
فإنْ ذُكِرت فى الحى أصبحَ أهلُه ... نشاوَى ولا عارٌ عليهم ولا إثْمُ
ومن بين أحشاءِ الدِّنان تصاعدَتْ ... ولم يبقَ منها فى الحقيقةِ إلا اسْمُ
وان خطرتْ يومًا على خاطِرِ امرىءٍ ... أقامتْ به الأفراحُ وارتحل الهَمُّ
ولو نَظَرَ النُّدمانُ ختمَ إنائِها ... لأسْكَرَهُم من دونِها ذلك الختْمُ
ولو نضَحُوا منها ثَرَى قبر ميتٍ ... لعادت إليهِ الروحُ وانتعَشَ الجسْمُ(٣)

---

(١) الشذا : قوة ذكاء الرائحة، والحان : حانوت الخمار ، والسنا : النور .

(٢) الحشاشة : بقية الروح، والنهى : جمع نهية وهى العقل، والكتم : الستر والإخفاء .

(٣) نضح المكان بالماء : رشه ، والثرى : التراب .

ولو طَرحُوا فى فَىْءِ حائطِ كرمِها عَليلاً وقد أشفَى لَفارَقَهُ السُّقْمُ
ولو قرَّبُوا من خانِها مُقْعَدًا مَشَى وينطقُ من ذِكرى مذاقتِها البُكْمُ
ولو عَبِقَتْ فى الشرقِ أنفاسُ طِيبِهَا وفى الغربِ مزكومٌ لعاد لَهُ الشَّمُّ
ولو خُضِّبَتْ من كأسِها كفُّ لامِسٍ لما ضلّ فى ليلٍ وفى يَدِهِ النَّجْمُ
ولو جُلِيَتْ سِرًّا على أكْمَهٍ غَدَا بصيرًا ومن راوُوقِها تَسْمَعُ الصمُّ (٤)
ولو أن رَكْبًا يَمَّمُوا تُرْبَ أرضِها وفى الركبِ ملسُوعٌ لما ضرَّه السُّمُّ (٥)
ولو رَسَم الراقى حروفَ اسمِها على جبينِ مصابٍ جُنَّ أبراه الرسْمُ
وفوق لواءِ الجيشِ لو رُقِمَ اسمُها لأسكرَ من تحتِ اللِّوَا ذلك الرَّقْمُ (٦)
تهذبُ أخلاقَ النَّدَامَى فيهتدِى بها لطريقِ العزمِ من لا لَه عَزْمُ
ويَكْرُمُ من لم يعرفِ الجودَ كَفُّهُ ويَحْلُمُ عندَ الغيظِ من لا لَهُ حِلْمُ
ولو نَالَ فَدْمُ القومِ لثمَ فِدَامِهَا لأكسبَه معنى شمائِلها اللَّثْمُ (٧)
يقولون لى : صِفْها فأنتَ بوصْفِها خبيرٌ ! أجلْ عندى بأوصافِها عِلْمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هَوًا ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جِسْمُ
تَقَدَّمَ كُلَّ الكائناتِ وجُودُها قديمًا ولا شَكْلٌ هناك ولا رسْمُ
وقامت بها الأشياءُ ثَمَّ لِحكمَةٍ بها احتجبتْ عن كُلِّ من لا لَهُ فَهْمُ
وهامت بها رُوحى بحيثُ تمازجا اتّ حَادًا، ولا جِرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِرْمُ (٨)

---

(٤) الأكمه : الأعمى، والراووق : المصفاة ، والصم : الطرش « الذين لا يسمعون » .
(٥) يمموا : قصدوا .
(٦)) رقم : كتب .
(٧) الفدم : البليد ، والفِدام : غطاء إبريق الشراب، والشمائل : الخصال .
(٨) هام به : أولع به وعشقه ، وتمازجا : اختلطا ، وجرم الشيء : مادته ، وتخلله : دخل بين أجزائه .

فخمــــرٌ ولا كــــرْمٌ وآدمُ لى أبٌ   وكَــــرْمٌ ولا خمرٌ، وَلى أُمُّهـــــا أُمُّ
ولُطْفُ الأوانِى فى الحقيقـةِ تـابعٌ   للطفِ المعانِى والمعـانِى بها تنمو
وقـد وقَـع التفـريـقُ والكـلُّ واحـدٌ   فـأرواحُنـا خمرٌ وأشبـاحُنـا كَـرْمُ
ولا قبلَهـا قبـلٌ ولا بعـدَ بعدِهـا   وقبليَّــةُ الأبعــادِ فهــى لها حَتْــمُ
وعَصْرُ المدَى من قبلِه كان عصرَها   وعَهْـدُ أبينـا بعدَهـا ولها اليُتْـمُ (٩)
محاسِـنُ تَهدِى المادحينَ لـوصفِهـا   فَيَحْسُـنُ فيهـا منهـم النَّثْرُ والنَّظْـمُ
ويطـرَبُ من لم يَـدْرِهَا عنـد ذِكْرِهـا   كمشتـاقِ نُعْـمٍ كلما ذُكِـرَتْ نُعْـمُ
وقـالـوا : شَرِبْتَ الإثْـمَ! كَـلاَّ وإنما   شربـتُ التى فى تَرْكِهـا عنـدىَ الإثْـمُ
هنيئًا لأهـلِ الدَّيْـرِ كـم سكِـرُوا بها   ومـا شربُـوا منهـا ولكنهـم همُّوا
وعنـدىَ منهـا نشـوةٌ قبـل نشْـأتِى   معـى أبـدًا تبقـى وإن بَلِىَ العَظْـمُ
عليك بها صِرْفًـا وإنْ شئتَ مَـزْجَهَا   فَعَدْلُكَ عن ظَلْمِ الحبيبِ هو الظُّلْمُ(١٠)
فَـدُونَكَهـا فى الحانِ واسْتَجْلِهَـا بِـهِ   على نغـمِ الألحانِ فهى بها غُنْـمُ (١١)
فما سكنـتْ والهمَّ يـومًـا بمـوضـعٍ   كـذلـك لم يسكـنْ مع النَّغَـمِ الغَـمُّ
وفى سكـرةٍ منهـا ولو عُمْـرَ سـاعـةٍ   ترَى الـدهرَ عبـدًا طائعًـا ولكَ الحُكْـمُ
فلا عيشَ فى الدنيا لمن عاشَ صاحِيًا   ومن لم يَمُـتْ سُكْرًا بها فـاتَهُ الحَزْمُ (١٢)
على نفسِـهِ فَلْيَبْـكِ مَنْ ضـاعَ عُمْـرُهُ   وليـس لـه فيهـا نصيبٌ ولا سَهْـمُ

---

(٩) العصر : الدهر ، المدى : الغاية .
(١٠) الظَّلْم ، بالفتح : الريق .
(١١) استجلها : اطلب انجلاءها ، والغُنم : الغنيمة .
(١٢) الحزم : الرأى السديد .

« الفناء فى المحبوب »

كمُلت محاسنُه فلو أهْدَى السَّنَا ... للبدرِ عند تمامِهِ لم يُخْسَفِ
وعلى تَفَنُّنِ وَاصِفِيهِ بحُسْنِهِ ... يَفْنَى الزمانُ وفِيهِ ما لم يُوصَفِ
قلبى يحدِّثُنى بأنَّكَ مُتْلفِى ... روحى فداكَ عَرفتَ أم لم تَعْرِفِ
لم أقضِ حقَّ هواكَ إن كنتَ الذى ... لم أقض فيه أسًى ومثلى مَنْ يَفِى
ما لى سوى روحِى وباذلُ نفسِه ... فى حبِّ من يهواهُ ليس بمُسْرِفِ
فلئن رضيتَ بها فقد أسْعَفْتَنى ... يا خيبَةَ المسْعَى إذا لمْ تُسعِفِ
يا مانِعِى طيبَ المنامِ ومانِحِى ... ثَوْبَ السِّقامِ به وَوَجْدى المتْلِفِ
عطفًا علَى رَمَقِى وما أبقيتَ لى ... من جسْمِىَ المُضْنَى وقلبِى المدْنَفِ(١)
فالوجدُ باقٍ والوصالُ مُمَاطِلى ... والصبرُ فانٍ واللقاءُ مُسَوِّفِى
لم أخلُ من حسَدٍ عليكَ فلا تُضِعْ ... سهَرِى بتشنيعِ الخيالِ المُرجِفِ(٢)
واسأل نجومَ الليلِ هل زارَ الكرَى ... جَفْنى وكيف يزورُ من لمْ يعرِفِ

(١) الرمق : بقية فى الحياة ، والمدنف : الشديد المرض .

(٢) التشنيع : التقريع ، والمرجف : المختلق الكذب .

(٣) الكرى : النوم .

لا غَرْوَ إنْ شَحَّت بغُمضٍ جُفونها   عينى وسحَّت بالدموعِ الذُّرَّفِ (٤)
وبما جرى فى موقفِ التوديعِ مِنْ   ألمِ النَّوى شاهدتُ هَوْلَ الموقفِ
إن لم يكنْ وصلٌ لديكَ فَعِدْ به   أَمَلى ومَاطِلْ إن وَعَدْتَ ولا تَفِى
فالمطْلُ منكَ لَدَىَّ إنْ عَزَّ الوَفَا   يحلو كوصلٍ من حبيبٍ مُسْعفِ
أهفُو لأنفاسِ النسيمِ تعلةً   ولوَجْهِ من نَقَلَتْ شذَاهُ تشوُّفى (٥)
فلعلَّ نارَ جوانحى بهبُوبها   أنْ تَنْطَفى وأودُّ أن لا تنطفِى
يا أهلَ وُدِّى أنتمُ أملِى ومَنْ   ناداكمُ يا أهلَ ودِّى قدْ كُفِى
عودُوا لما كُنتم عليهِ منَ الوَفَا   كَرَمًا فإنى ذلك الخِلُّ الوَفِى
وحياتِكم ، وحياتِكُمْ قسمًا ، وفى   عمرِى بغيرِ حياتِكم لمْ أحْلِفِ
لو أن رُوحِى فى يدِى ووهبتُها   لمبشِّرِى بقدُومكم لم أُنْصفِ
لا تحسبونى فى الهوى مُتصنعًا   كلفى بكم خُلُقٌ بغير تكلُّفِ (٦)
أخفيتُ حبّكُمُ فأخفَانِى أسًى   حتى لَعَمْرِى كدتُ عنى أختَفِى
وكتمتُه عنى فلو أبْدَيتُه   لوجدتُه أخفَى من اللُّطْفِ الخَفِى
ولقد أقولُ لمن تحرَّشَ بالهَوَى   عَرَّضْتَ نفسَكَ للبلاَ فاستهدِفِ
أنتَ القتيلُ بأىِّ مَنْ أحببْتَهُ   فاخترْ لنفسِكَ فى الهوَى من تصْطفِى

(٤) شحت : بخلت ، وسحت : انهمرت ، والذُّرَّف : المنسكبة .

(٥) أهفو : أميل ، والتعلة : التعليل ، والشذا : قوة ذكاء الرائحة الطيبة ، والتشوُّف : حب الاستطلاع .

(٦) الكلف : فرط المحبة .

قُلْ للعذولِ أَطَلْتَ لومى طامِعًا إنَّ الملامَ عنِ الهوَى مُستوقِفِى
دَعْ عنكَ تعنيفى وذُقْ طعمَ الهوَى فإذا عشقْتَ فَبَعْدَ ذلكَ عَنِّفِ
بَرَحَ الخفاءُ بحبِّ من لَوْ فى الدُّجى سَفَرَ اللثامَ لقلتُ يا بدرُ اختَفِ
وإنِ اكْتَفَى غيرى بطيفِ خيالِه فأنا الذى بوصالِهِ لا أكتَفِى
وَقْفًا عليه مَحَبَّتِى ولِمِحْنَتِى بأقلَّ من تَلفِى به لا أشْتَفِى
وهواه وهو أَلِيَّتِى وكَفَى به قَسَمًا أكادُ أُجِلُّهُ كالمُصْحَفِ (٧)
لو قالَ تِيهًا : قِفْ على جمرِ الْغَضَا لوقفتُ مُمتثلاً ولم أتوقَّفِ
أو كان من يرْضَى بخدِّى موطِئًا لوَضَعْتُه أرضًا ولم أسْتنكِفِ
لا تنكروا شَغَفِى بما يرضَى وإنْ هو بالوصالِ علىَّ لمْ يَتعطَّفِ
غلَبَ الهوى فأطعتُ أمرَ صبابتِى من حيثُ فيه عصَيتُ نَهَى مُعَنِّفِى
مِنِّى له ذلُّ الخضُوعِ ومنهُ لى عزّ المنُوعِ وقوةُ المستضْعَفِ (٨)
أَلِفَ الصدودَ ولى فؤادٌ لم يزَلْ مُذْ كنتُ غيرَ ودادِه لمْ يألَفِ
ياما أُمَيْلَحَ كلَّ ما يرْضَى به ورضَابهِ ياما أُحيلاهُ بِفِى (٩)
لو أسمعُوا يعقوبَ ذكرَ مَلاحةٍ فى وجهه نسىَ الجمالَ اليُوسُفِى
أو لو رآه عائدًا أيوبَ فى سِنَةِ الكَرَى قِدْما من البلْوى شُفِى
كُلّ البدُور إذا تجلَّى مُقْبِلاً تصبُو إليه وكلُّ قدٍّ أهيَفِ

---

(٧) الية : قَسَمى ، وأُجِلُّهُ : أُعَظمه .
(٨) المنوع : الشديد المنع .
(٩) أميلح : تصغير أملح . . اسم تفضيل من الملاحة ، ومثله ما أُحيلاه ، والرضاب : الريق ، وفى : مشددة الياء خففت للوزن ، أى فمى .

إن قلتُ عندِى فيكَ كلُّ صبابةٍ قال: الملاحةُ لِى وكلُّ الحسنِ فِى (١٠)
«كُملت محاسنُه فلو أهدَى السنا للبدرِ عند تمامِه لمْ يُخسَفِ»
«وعلى تفنُّنِ واصِفيه بحسنِه يفنى الزمانُ وفيه ما لمْ يوصَفِ»
«ولقد صرفتُ لحُبِّهِ كُلِّى على يدِ حسنِه فحمدتُ حسنَ تصرُّفِى» (١١)
فالعينُ تهْوى صورةَ الحسنِ التى رُوحى بها تصبُو إلى معنًى خفى
أسْعد أُخَيَّ وغنِّنى بحديثِه وانثُرْ على سمْعِى حُلاهُ وشنِّفِ (١٢)
لأرى بعينِ السمعِ شاهدَ حسنِه معنًى فاتحِفْنِى بذاك وشرِّفِ
يا أختَ سعْدٍ من حبيبِى جئتِنى برسالةٍ أدّيتُها بتلطُّفِ
فسمعتُ ما لم تسمعى ونظرتُ ما لم تنظُرِى وعرفتُ ما لمْ تعرِفِى
إنْ زارَ يومًا يا حَشَاى تقطَّعِى كلفًا به أو سارَ يا عين اذرفِى
ما للنوَى ذنبٌ ومن أهْوى معى إنْ غابَ عن إنسانِ عينِى فهْوَ فِى (١٣)

---

(١٠) فى : أى فى وجهى .
(١١) صرفت : بمعنى بذلت .
(١٢) أسعد : بمعنى ساعد، وشنف أذنه : جعل فيها الشنف، وهو الحلية لها .
(١٣) النوى : البعد ، وفى : أى فى قلبى ، وهو نوع من البديع يسمى الاكتفاء .

المــراجع

- إحياء علوم الدين — الإمام أبو حامد الغزالى
- المنقذ من الضلال — الإمام أبو حامد الغزالى
- تهافت الفلاسفة — الإمام أبو حامد الغزالى
- ديوان ابن الفارض (دار صادر)
- الرسالة القشيرية — عبد الكريم القشيرى
- ابن الفارض والحب الإلهى — د. محمد مصطفى حلمى
- فصول فى الشعر ونقده — د. شوقى ضيف
- مدخل إلى التصوف الإسلامى — د. أبو الوفا التفتازانى
- الفلسفة والحقيقة — د. عبد الحليم محمود
- الأدب الصوفى : اتجاهاته وخصائصه — د. صابر عبد الدايم
- الصوفية فى الإسلام — نيكلسون
- عمر بن الفارض - [فى كتاب عظماء الشرق] — محمد عبد الهادى أبو ريدة

عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043